ثنائية الحياة والموت في قصيدة وصف الجبل لابن خفاجة

د. محمود درابسة – الأردن

تمهيد

لقد عاش ابن خفاجة (1138/533-1085/450) في فترة صعبة من التاريخ العربي في الأندلس . فتاريخيًا الضعف بدأ يدبّ في جسم الدولة الأموية، وذلك بعد أن استبدّ العامريون بأمر الخلافة، حيث أخذ رؤساء الطوائف يستقلون بإماراتهم التي يحكمونها، فعُرفوا بعد ذلك بملوك الطوائف الذين امتد حكمهم من سنة 403 /1112 1141/536 [1].

وفي إطار هذه المتغيرات التي أصابت الدولة العربية في الأندلس وتمزّقها إلى دويلات صغيرة، استيقظت إسبانيا النصرانية لتواجه تلك الدويلات المتحاربة فيما بينها، وكذلك تعاون الإسبان النصارى مع النصارى في غرب أوروبا، وبفعل هذه الأسباب مجتمعة أصاب الوهن ملوك الطوائف، وتمكّن الإسبان في آخر الأمرمن التغلب على هؤلاء الملوك الضّعفاء وإنهاء حكمهم [2] .

وإلى جانب التعصب والاستبداد واللهو والحرية المفرطة التي أصابت الحيَاة في الأندلس [3]، نشأت تيارات تدعو إلى الزهد والابتعاد عن ترف الحياة وملذاتها، ولعل ولعل ذلك يعود إلى فوضى الحياة السياسية، والاضطراب الذي شمل مناحي الحياة

---

(1) الركابي جودت : في الأدب الأندلسي، دار المعارف بمصر، ط 4 القاهرة 1960، ص 23 .

(2) انظر، غومس غارسيا : الشعر الأندلسي، ترجمة حسين مؤنس، مكتبة النهضة المصرية، ط3، القاهرة 1969، ص 44- 54. الدقاق عمر : ملامح الشعر الأندلسي، دار الشروق، بيروت 1975، ص 14.

(3) الركابي جودت : في الأدب الأندلسي، ص 47- 48 .

المختلفة مما شجّع كل فرد على السعي إلى تخليص نفسه من غوائل الحياة والنجاة من براثن الأوضاع الاجتماعية السيئة، مما جعل الزهد في الحياة مذهبا أدبيا وأخلاقيا [4]. كما ساعدت الحرية التي سادت آنذاك على ظهور اتجاه فلسفي أثّر بشكل مباشر على الحركة الشعرية في الأندلس، فضلا عن شعر أبي العلاء المعري وأثره في شعراء الأندلس [5].

وفي خضم هذه التقلبات السياسة والفكرية في عهدي الطوائف والمرابطين عاش ابن خفاجة حياته، حيث عكف في صباه على المجون واللهو والتمتع بالطبيعة الأندلسية الغناء التي تركت أثرا بارزا في شعره، كما أقلع في شيخوخته عن حياة اللهو والمجون وتحوّل إلى النسك بسبب الخوف من الموت بعد رحيل أصدقائه وبقائه وحيدا، حيث لم يتزوج خلال حياته [6].

ولذا، فان شخصية ابن خفاجة قد تأثرت أيضا نتيجة للأحداث العصيبة التي منيت بها الأندلس، مما جعله ينأى بنفسه عن هذه الحياة المتوترة، وأن يميل إلى العزلة، وخاصة بعد عودته إلى مسقط رأسه شُقْر التي أحتلها الإسبان أثناء الهجمات والمعارك المتواصلة بين الأندلسيّين والمرابطين وجموع الإسبان بزعامة السيّد القمبيطور. ولذلك اتجه ابن خفاجة إلى الزهد والتوبَة، وصار شديد الإحساس بدنوّ الأجل، خاصة بعد أن

---

(4) عباس إحسان : تاريخ الأدب الأندلسي، عصر الطوائف والمرابطين، دار الثقافة، ط5 بيروت 1978، ص 130 .

(5) المرجع نفسه، ص 126 .

(6) المرجع نفسه، 206 . انظر جودت الركابي : في الأدب الأندلسي، ص 106 .غارسيا غومس : الشعر الأندلسي، ص 58– 59 .

تقدمت به السن، وعاصر تلك الأحداث التي عصفت بالحياة الأندلسية، وبعد رحيل أصدقائه وبقائه وحيدا كئيبا دون زوجة أو صديق[7] .

وفي ضوء هذا التمهيد للأوضاع السياسية والفكرية في الأندلس وأثرها في شخصية ابن خفاجة ونظرته إلى الحياة وعلى شعره أيضا، سوف يتناول هذا البحث قصيدة وصف الجبل التي تمثل نظرة ابن خفاجة إلى الحياة وتقلباتها، كما تعكس نفسية ابن خفاجة وشخصيته، وهذه القصيدة النموذج تمثل ظاهرة الموت والحياة عنده بشكل واضح، علما أن ثمة قصائد أخرى تتناول هذه الظاهرة كقصيدة وصف القمر مثلا.

(1)

تعالج هذه الدراسة موقف ابن خفاجة من ثنائية الحياة والموت التي تتجلى في ثنايا شعره وخاصة قصيدة وصف الجبل التي تبرز فيها ثنائية الحياة والموت بشكل واضح، كما تشكل هذه الثنائية جوهر النص وأساسه. ويحاول الشاعر من خلال هذا النص معاينة الوجود وسبر كنه هذه الحياة للوصول إلى فلسفة خاصة به تتمثل في التجارب المختلفة التي مّر بها، كما تعاين هذه القصيدة حركة الزمن الدائبة إزاء الحياة القصيرة الفانية، فالنص يشكل مواجهة حقيقة الموت والفناء.

وقراءة النص هنا تتناول كل جزئياته التي تتضافر معا عبر سياقات تنصهر في صياغة واحدة وتجسد تجربة الشاعر وتوتره إزاء ظاهرة الموت والحياة، فالدراسة هذه تتناول اللغة ومستوياتها المختلفة، إضافة إلى الإيقاع والصورة بشكل متكامل، بحيث يعالج النص هذه العناصر الأساسية فيه معا ودون تجزئة لها يفقدها الحيوية التي تتوفر لها من خلال تناولها مجتمعة ممّا يمنح النص الحيوية والقدرة المتجددة على

---

(7) عمر الدقاق : ملامح الشاعر الأندلسي، ص 190 – 192 .انظر جودت الرّكابي: في الأدب الأندلسي ص 106 .

إبراز هذه الإشكالية الإنسانية عبر الوجود في معاينة مسألة الموت والحياة من خلال هذا النص الشعري[8].

فالدراسة الأدبية ينبغي أن تعاين النص من داخله، وأن تبتعد عن المظاهر الشكلية وتفسير الكلمات لغويا، لتسبر جوهر النص الذي يجسد نفسية الشاعر ورؤيته للحياة[9] وخاصة قصيدة وصف الجبل التي جاءت في ظروف صعبة مرّ بها الشاعر، فجعلته يتأمل هذه الحياة ويحاول سبر كنه الموت وحقيقته من خلال رحيل أصدقائه وأقربائه، وبقائه وحيدا، مما جعل لهذه العزلة أثرا في تصوره للحياة.

كما تتناول الدراسة المظاهر الأسلوبية المتعلقة باللغة ومستوياتها، وأشكال التكرار، والإشارات البلاغية التي تعين على الوقوف على طبيعة تجربة الشاعر الفنية، هذه التجربة التي استطاع من خلالها تجسيد فكرته عن الحياة والموت مما شكل منها فلسفة تشاؤمية خاصة وسمت الشاعر بسماتها.

يقول ابن خفاجة في قصيدة وصف الجبل[10] :

بِعَيْشِكَ هَلْ تَـدْرِي أَهُـوجُ الجَنَائِبِ ... تَخُبُّ بِرَحْـلِي أَمْ ظُهُورُ النَجَائِبِ ؟[11]

فَمَا لُحْتُ فِي أُولَى المَشَارِقِ كَوْكَـبًا ... فَأَشْـرَقْتُ حتَّى جُبْـتُ أُخرى المَغَارِبِ

وَحِيـدًا تَهَـادَانِي الفَيَافِي فَـأَجْتَـلِي ... وُجُوهَ المَنَايَـا فِي قِنَاعِ الغَيَـاهِبِ[12]

---

(8) انظر نور الدّين صدّوق : حدود النّصّ الأدبي، دراسة في التنظير و الإبداع، دار الثّقافة، ط1، الدّار البيضاء 1984، ص 8 .

(9) صدوق نور الدّين : حدود النّصّ الأدبي ، ص 28 .

(10) ابن خفاجة ، أبو إسحاق إبراهيم بن حفاجة : الدّيوان، تحقيق سيّد غازي، منشأة المعارف بالإسكندريّة، ط3، 1979، ص215- 217 .

(11) هوج النجائب : رياح الجنوب الهوجاء، النجائب : مفردها نجيبة وهي النّاقة الأصيلة.

(12) الغياهب : الظّلمات .

وَلاَ جَـارَ إلاَ مِنْ حُسَـامٍ مُصَمَّـمٍ ... وَلا دَارَ إلاَ فِي قُـتُودِ الـرَّكَائِبِ (13)
وَلا أُنْـسَ إلاَ أن أُضَاحِكَ سَاعَـةً ... ثُـغُورَ الأَمَـانِي فِي وُجُـوهِ المَـطَالِبِ
وَلَيْـلٍ إذا ما قلتُ قد بَادَ فانْقضَى ... تَكَشَّفَ عن وَعْدٍ مِـنَ الظَّـنِ كَاذِبِ
سَحَبْتُ الدَّيَاجِـي فِيـهِ سُودَ ذَوَائِبٍ ... لأَعْتَـنِقَ الآمَالَ بِيضَ تَـرَائِبِ (14)
فَمَزَّقْتُ جَيْبَ اللَيْلِ عَنْ شَخْصِ أطْلَسٍ ... تَطلَّعَ وَضَّاحَ المَضَاحِكِ قَـاطِبِ (15)
رأيـتُ بِـه قطْعًا من الفَجْرِ أَغْبَـشًا ... تَأَمَّـلَ عـن نَجْـمٍ تَـوَقَّـدَ ثَـاقِبِ
وَأَرْعَـنَ طَمَّـاحِ الـذُؤَابَةِ بَـاذِخٍ ... يُطَـاوِلُ أعْنَانَ السَّمَاءِ بِغَـارِبِ (16)
يَسُدُّ مَهَـبَّ الرِّيـحِ عن كُلِّ وِجْهَةٍ ... وَيَـزْحَمُ لَيْلاً شُهْـبَـهُ بِـالمَنَـاكِبِ
وَقُورٍ عَلَـى ظَـهْرِ الفَـلاَةِ كَـأَنَّهُ ... طِوَالَ اللَّيَـالي مُـطْرِقٌ فِـي العَوَاقِبِ
يَلوثُ عليه الغَـيْمُ سُـودَ عَـمَائِمٍ ... لَهَا من وَمِيـضِ البَـرْقِ حُمرُ ذَوَائِبِ
أَصَخْتُ إليه وَهو أَخْـرَسُ صَامِتٌ ... فَحَـدَّثَـنِي لَيْـلُ السُّـرَى بِالعَـجَائِبِ
وقَـالَ : أَلاَ كَمْ كُنْـتُ مَلْجَـأَ فَاتِكٍ ... وَمَـوطِـنَ أَوَّاهٍ تَبَـتَّـلَ تَـائِـبِ
وَكَمْ مَرَّ بِـي مِـن مُـدْلِجٍ وَمُؤَوِّبٍ ... وَقَـالَ بِظلِّي مِنْ مَطِيٍّ وَرَاكِـبِ (17)
وَلاَطَـمَ من نَكْبِ الرِّيَاحِ مَعَـاطِفِي ... وَزَاحَمَ من خُضْـرِ البِحَارِ جَوَانِبِي (18)
فَمَا كَـانَ إلاّ أن طَوَتْـهُمْ يَدُ الرَّدَى ... وَطَارَتْ بِهِمْ رِيحُ النَّـوى وَالنَوَائِبِ (19)

---

(13) القتود : مفردها قتد، وهي أخشاب الرحل، الرّكائب النّوق.

(14) الدّياجي : الظّلمات ، التّرائب : عِظام الصدّر.

(15) الجيب : ما تحت فتحة العنق من الثّوب ، الأطلسي: الأغبر ويريد به الأفق الذي اتضحت فيه ملامح الضّوء.

(16) الأرعن : نعت للجبل المحذوف وهو الشّديد النّتوء، الباذخ : الشّاهق، الغارب: الظّهر .

(17) أدلج : صار في الليل ، وأدب وآب : رجع، قال من القيلولة وهي الاستراحة وقت الظّهيرة، المطي : الحيوان من خيل و إبل.

(18) ريح نكباء : شديدة عاصفة ، المعاطف : الجوانب ، الغوارب : مفردها غارب، وأعلى الشيء.

(19) النّوى : البعد ، النّوائب : المصائب .

فَمَا خفَقْ أَيْكِي غَــيْرَ رَجْفَــةِ أَضْلُعٍ وَلاَ نَوْحُ وُرْقِي غَيْرَ صَرْخَـــةِ نَادِبِ[20]
ومــا غيّضَ السُّــلْوَانُ دَمْعِي وإنَّما نَزَفْتُ دُموعي في فِرَاقِ الأَصاحبِ [21]
فَحَتَّى مَتَــى أَبْــقَى ويَظْعَنُ صاحبٌ أُودِّعُ مِنْــهُ رَاحِلاً غَيْــرَ آيِـــبِ ؟[22]
وحتّــى مَتَى أَرْعَى الكَوَاكبَ ساهِرًا فَمِنْ طَالِعٍ،أخْــرَى اللَّــيَالِي،وَغــارِبِ ؟
فَــرُحْمَاكِ يا مولاي دَعْوَةَ ضارعٍ يَــمُدُّ إلى نُعْمَــاك رَاحـــةَ رَاغِـــبِ
فَأَسْمَعَــنِي مِنْ وَعَظِه كُلَّ عِــبْــرَةٍ يُتَـــرْجِـمُهَا عنهُ لســانُ التَّجَـــارِبِ
فَسَلَّى بِمَا أبْكَي وَسَــرَّى بِمَـــا شَجَا وكَانَ عَلى لَيلِ السُّرى خَيْرَ صَاحبِ[23]
وقـــلتُ وقد نكَّبــتُ عـــنه لطِيَّــةٍ سَـــلامٌ فَإِنَّـــا مِـــنْ مُقِيـــمَ وَذَاهِبِ [24]

تتشكل قصيدة وصف الجبل من ثلاث لوحات شعرية هي : البحث عن الحقيقة أو ما يمكن تسميته بالكشف عن كُنه الحياة أو سرّ الوجود. وهذه اللوحة تمثل صورة الشاعر أو الوجه الخارجي للشاعر حيث القلق والمعاناة والتيه واستشراف كُنه هذه الحياة. وأما اللوحة الثانية فهي لوحة وصف الجبل وتتمثل في البيت العاشر حتى البيت الثالث والعشرين، وتجسد هذه اللوحة الصورة الداخلية للشاعر، وذلك من خلال الظلال التي تتركها صورة الجبل في النفس، فالجبل يمثل إسقاطا لأحاسيس الشاعر ومعاناته، وتمثل اللوحة الثالثة مرحلة إدراك كنه هذه الحياة وسبر غورها. فالشاعر في هذه اللوحة يقف على سر الوجود المحير بالنسبة إلى الإنسان، حيث يدرك حقيقة هذه الحركة والتغير والثبات في هذه الحياة، وذلك من خلال صورة الإنسان، وصورة الجبل والطبيعة.

---

(20) الأيك : الشّجر المورّق الملتفّ ، الورق : الحمام .
(21) غيّض الماء أو الدّمع : ذهب به وحبسه ، سلاه : نسيه .
(22) ظعن : سار وارتحل، آيب : راجع، عائد .
(23) سرى : بدّد الحزن وأبعد الغمّ والهمّ .
(24) الطِّيَّة : الجهة أو النّاحية البعيدة ، وكذلك النّيّة والقصد، نكب وتنكب : عدل وتنحى واعرض .

لقد كشفت اللّوحة الأولى المشكلة التي تلحّ على ابن خفاجة وعلى الإنسان الأندلسي بشكل عام وهي مشكلة الوضع الإنساني عامة، كما كشفت عن الوضع الأندلسي القلق والمتوتّر والمتوجّس خيفة إزاءالواقع الذي يعيشه الفرد الأندلسي آنذاك وخاصة ما أصاب الحياة العامة للأندلس من تغير وتشرد ومواجهة حقيقيّة للموت. إنّها تمثل مشكلة المصير الإنساني [25]. إن هذه المشكلة الإنسانية قد دفعت ابن خفاجة إلى القلق إزاء الواقع الذي يعيشه، مما حدا به إلى التفكير في وجوده ومصيره [26]، فأصبح إزاء حقيقة تلح عليه هي حقيقة الحياة التي تمر بسرعة فتأخذ معها مرحلة الشباب، كما تفرق الأصحاب والأحباب، وتترك الإنسان ينتظر الحقيقة المرة المتمثلة في الموت والفناء والانتهاء . يقول ابن خفاجة : " فأين ما كان من تلك الأيام المتخيلة من الأحلام ؟ وأين من قد عرفنا وألفنا من الأخوان ؟ بانوا، وكأنهم ما كانوا، وفقدوا، وكأنهم ماوجدوا... ثم آه ! على شباب قد انقلب، وذهاب قد اقترب فلا تناجي إلاّ بعمل يتعقب، وأجل يترقب " [27].

وقد بدأ الشاعر لوحته الأولى بمخاطبة الجبل مستخدما أسلوب القسم بقوله :

بِعَيْشِكَ هَلْ تَدْرِي أَهُوجُ الجَنَائِبِ تَخِبُّ بِرَحْلِي أَمْ ظُهُورُ النَّجَائِبِ ؟

فالشاعر يواجه منذ البيت الأول حالة التغير والحركة الخفية اللاّإراديّة المتمثلة في حركة الرياح أو حركة الراحلة. وقد تساءل وهو في حالة من الذهول : أَهُوجُ الجَنَائِبِ أَمْ النّجائب هي التي تدفعه وتسبب له حالة عدم الاستقرار . ولعل هذه الحركة هي نتيجة لعدم الاستقرار النفسي عند الشاعر. فهو يواجه حركة دائبة للطبيعة وكذلك للوضع العام في الأندلس حيث تقوم ممالك وتندثر أخرى بحركة عجيبة يتأثر بها

(25) إحسان عبّاس: تاريخ الأدب الأندلسي، عصر الطّوائف والمرابطين، ص 193.

(26) انظر عبد الخالق أحمد محمّد : قلق الموت، المجلس الوطني للثّقافة والفنون والآداب(سلسلة عالم المعرفة رقم111) الكويت، 1987، ص 39 .

(27) ابن خفاجة : الدّيوان ص 64 .

فيرتحل عن بلده مجبرا ويبقى يدور في دائرة التنقل وعدم الثبات، مما حدا به إلى التفكير في الطبيعة متمثّلة في الرياح بصفتها رمزا للتغيير والشؤم في آن معا .

وقد تابع في لوحته رسم حالة الذهول والقلق في رحلته لكشف كُنه هذه الحياة، حيث عبّر في البيت الثاني والذي يليه عن صدمته إزاء بحثه عبر المجهول لمعرفة حركة سيره وتنقله وحيدا دون خل أو رفيق، فالشاعر يعبر عن وحدته بعد رحيل أصحابه وبقائه دون زواج في مواجهته لحقيقة الوجود، حيث بدا الانفعال والتوتر واضحا عند الشاعر من خلال تتابع الأبيات التالية :

وَحِيــدًا تَهَــادَانِـــي الفَيَــافِي فَأَجْتَلِي ... وُجُــوهَ المَنَــايَــا فــي قِنَــاعِ الغَيَاهِبِ
وَلاَ جَــارَ إلاَ مِــنْ حُسَــامٍ مُصَمَّمٍ ... وَلاَ دَارَ إلاَّ فِــي قُتُــودِ الرَّكَائِــبِ
وَلاَ أُنْــسَ إلاَّ أَنْ أُضَــاحِــكَ سَاعَةً ... ثُغُــورَ الأَمَــانِــي فِــي وُجُوهِ المَطَالِبِ

فالوحدة في إطار الصحراء الواسعة التي تخفي في ظلمتها الموت والفناء، تلح على الشاعرفيحاول مقاومة الخوف بالضحك ساعة أو بتذكر أهمية الجار والصديق، بعد أن أصبح بيت الشاعر هو راحلته التي يتنقل عليها، والتي تعكس حالة التغير وعدم الاستقرار. فالرحلة عبر الليل والظلمة تمتد إلى مالا نهاية حيث يكشف الليل عن ليل جديد تتبدد فيه الآمال وتتلاشى فيه الأحلام والأماني :

وَلَيْــلٍ إِذَا مَا قُلْــتُ قَدْ بَادَ فَانْقَضَى ... تَكَــشَّفَ عَــنْ وَعْــدٍ مِــنَ الظَنِّ كَاذِبِ

وقد بلغ التوتر والعنف أوجه عند الشاعر في قوله :

فَمَزَّقْتُ جَيْبَ اللَّيْلِ عَنْ شَخْصِ أَطْلَسٍ ... تَطَلَّــعَ وَضَّــاحَ المَضَــاحِــكِ قَــاطِبِ

إنّ استخدام الشاعر لصيغة المبالغة بقوله " فَمَزَّقْتُ " تجسّد حالة العنف التي لجأ إليها الشاعر للكشف عن سر الوجود عبر رحلة الحياة . إذ واجه الشاعر في رحلته مشكلة التغير والزوال لممالك ودول، فأصابه ما أصاب هذه الممالك من التغير والتشرد ومواجهة الموت، وعادت به ذاكرته إلى الماضي حيث السيف والقوة والراحلة التي كانت رمزًا لقوة العرب عبر تاريخهم وحضارتهم. فالشاعر يواجه تحديا من الواقع

الذي يعيشه، ومن الموروث الذي وصل إليه من أجداده العرب، فقد كان الماضي يعني القوة والشموخ بينما يعني حاضر الشاعر الضعف والقلق والخوف والموت بحقيقته المرة، ولذلك فقد أخذ الشاعر يحاول الكشف عن سر الحياة وحقيقة الموت من خلال الطبيعة التي تمثل وجودا مستمرا تتبدل خلاله الممالك والدول والأشخاص، بينما تبقى هي شاهدا على تحولات هذا الوجود وتغيّراته .

وتظهر الصورة الداخلية للشاعر من خلال إضفاء المشاعر الإنسانية على الجبل الذي يمثل شخصا آخر إزاء شخصية الشاعر[28]، بل إنه يمثل حقيقة الشاعر نفسه، إذ أنّ ابن خفاجة لم يقصد تصوير الملامح الطبيعية البارزة في الجبل بقدر ما كان يريد تصوير ما تثيره هذه الملامح في نفسه . إنّ الشاعر قد أسقط جميع أحاسيسه ومشاعره على الجبل، فبدا هذا الجبل الشامخ الوقور إنسانا حيّا يزيد مشاعر ابن خفاجة المرهفة إنسانية، ويبعث في نفسه الأمل والأناة مستمدا من أناة الجبل وطول تأمله العبرة والقدرة على مواجهة المصير .

لقد رسم الشاعر ملامح هذا الجبل بدقّة متناهية وكأنه يرسم بالفعل ملامحه الخاصة بعد أن بدأ يشعر بدنّو أجله بعد أن شعر بثقل الحياة عليه، فقد بدت صورة الجبل مهيبة بملامح الكبر والشموخ والارتفاع، حيث يقف في وجه الرياح رمز التغيير والشؤم، تلك الرياح التي كانت تحرك الشاعر دون إرادة منه يقول :

وَأَرْعَنَ طَمّاحِ الذُّؤَابَةِ بَاذِخٍ يُطَاوِلُ أَعْنَانَ السَّمَاءِ بِغَارِبِ
يَسُدّ مَهَبَّ الرِّيحِ عَنْ كُلِّ وِجْهَةٍ وَيَزْحَمُ لَيْلاً شُهْبَهُ بِالمَنَاكِبِ

إنّ صورة الجبل هي صورة الناسك المعمّر الذي يطرق متأملا حركة الزمن وتقلب الأمور ورحيل أناس ومجيء آخرين في حركة دائبة غير متوقفة، يقول :

وَقُورٍ عَلَى ظَهْرِ الفَلاَةِ كَأَنَّهُ طِوَالَ اللَّيَالِي مُطْرِقٌ فِي العَوَاقِبِ
فَمَا كَانَ إلاَّ أَنْ طَوَتْهُمْ يَدُ الرَّدَى وَطَارَتْ بِهِمْ رِيحُ النَّوَى وَالنَّوَائِبِ

(28) إحسان عبّاس: تاريخ الأدب الأندلسي، عصر الطّوائف والمرابطين ص ص. 209-220 .

وقد استطاع الشاعر من خلال البحر الطويل أن يوفر إيقاعا قويا ينفث من خلاله أحزانه وآلامه، ولهذا فإن القارئ يلمس من خلال حرف الباء الذي انتهت إليه القافية قوة وعنفا يجسد حالة الغضب والعنف التي تعتصر في قلب الشاعر إزاء تلك الحالة المبهمة التي تصيبه من خلال مراقبته ومعايشته لتقلبات الزمن، يقول :

فَمَـــا خَفْــقُ أَيْكِي غَيْرَ رَجْفَةِ أَضْلُعٍ ‌ ‌ ‌ ‌ وَلاَ نَــوْحُ وُرْقِــي غَيْــرَ صَرْخَةَ نَادِبِ

ولهذا نلمس أن الشاعر قد قدّم من خلال خطابه الشعري هنا مقاطع موسيقية مؤثرة كما هو الحال في البيت السابق حيث نجد قوله فَمَا خَفْقُ أَيْكِي، ثم رَجْفَةُ أَضْلُعٍ، وَنَوْحُ وُرْقِي، ثم صَرخة نَادِب، إذ أنّ كل مقطع يعبر عن مشاعر حزينة تخرج من قلب الشاعر، فصورة حركة الأشجار في الغابة التي تشبه بأغصانها أضلع الشاعر المرتجفة الفزعة من حال الزمن الذي يعايشه، انقلبت هنا من صورة جمالية لأغصان أشجار الغابة الى صورة حزينة مؤلمة، وكذلك مقطع نوح الوُرق التي ترمز عادة للسلام والمحبة والوداعة لتصبح حزينة تنوح وتندب شبيهة بصرخ الملهوف والفزع الذي يواجه صدمة الحياة، ويترقب الانتهاء والفناء والموت.

وقد بلغت حدة العاطفة والانفعال والتوتر أوجها عند الشاعر والجبل معا من خلال استثقالهما للحياة بعد رحيل الأصدقاء والأحبة، إنّ هذا الفراغ العاطفي قد جعل الشاعر يرى حياته في هذه المرحلة المتقدمة من العمر عبثا، إذ أن حدة الصراع بين الحياة الثقيلة التي يعيشها الشاعر وبين الموت المرتقب قد برزت من خلال الأبيات المتتابعة التالّية :

وَمَا غَيَّضَ السُّلْوَانُ دَمْعِي وَإِنَّمَـــا ‌ ‌ ‌ ‌ نَزَفْتُ دُمُوعِـــي فِـــي فِــرَاقِ الأَصَاحِبِ

فَحَتَّـــى مَتَـــى أَبْقَى، وَيَظْعَنُ صَاحِبٌ ‌ ‌ ‌ ‌ أُوَدِّعُ مِنْـــهُ رَاحِـــلاً غَيْرَ آيِـــــــبِ ؟

وَحَتَّـــى مَتَى أَرْعَى الكَوَاكِبَ سَاهِرًا ‌ ‌ ‌ ‌ فَمِنْ طَـــالِعٍ أُخْـــرَى اللَّيَالِي وَغَارِبِ؟

إن هذه الأبيات تركز على المعضلة الجوهرية في حياة الشاعر من خلال تنازعه بين الحياة المملّة الثقيلة وبين الموت المرعب المخيف، فقد كرّر الشاعر هنا على لسان الجبل قوله : فَحَتّى مَتَى أَبْقَى، ثم وَحَتَّىمَتَى أَرْعَى الكَوَاكِبِ، وهنا تظهر إشكالية البقاء ازاء حركة الزمن الدائبة التي تركت الشّاعر في فراغ عاطفي وحيدا يواجه العزلة بعد رحيل أصدقائه، فالشاعر يراقب حركة الزمن وتغير اللّيل والنهار وكأنه قد أصبح معلقا

في هذه الحركة الدائبة دون إرادة منه، ولهذا نراه يتوجّه بالتضرع إلى اللــه طلبا للراحة والطمأنينة [29]، وتململا من الحياة، وطول العمر، وقسوة العزلة والوحدة، فيقول :

فَرُحْــمَاكَ يَــامَوْلاَيَ دَعْــوَةَ ضَارِعٍ   يَمُــدُّ إِلَــى نُعْــمَاكَ رَاحَــةَ رَاغِــبِ
فَأَسْمَــعَنِي مِــنْ وَعْــظِهِ كُلَّ عِبْرَةٍ   يُتَرْجِمُــهَا عَنْــهُ لِسَــانُ التَّجَــارِبِ

إن النزعة الفلسفية التشاؤمية التي برزت بوضوح في هذا الخطاب الشعري تجسد تفسيرا لثنائية الحياة والموت أوالحضور والغياب والتي توصّل إليها الشاعر من خلال إسقاطه لمشاعره الإنسانية ومرارة تجربته على معلم من معالم الطبيعة التي تشهد التغيرات البيئية، وتخلد رغم تحولات الزمن وتقلباته، وهو أن الحياة هي مرحلة تنتهي إلى رحلة قاسية تتمثل في الموت والفناء والغياب، ولهذا قال الشاعر :

وَقُلْــتُ وَقَــدْ نَكَّــبْتُ عَنْــهُ لِطِيَّــةٍ   سَــلاَمٌ فَــإِنَّــا مِــنْ مُقِــيمٍ وَذَاهِــبِ

إن هذه النتيجة التي توصل إليها الشاعر في نهاية الأمر تشكل حقيقة الاستسلام لسُنّة الكون وطبيعة الحياة التي تتجسد فيها جدلية الموت والحياة أو الإقامة والرحيل. ولعل هذه النتيجة تمثل علاجا نفسيا للشاعر بعد أن شهد ظروفا من التقلب والتغير والارتفاع والانحطاط على صعيد الوضع العام في الأندلس وما أصاب الفرد الأندلسي أيضا فيه من تشرد وعزلة ووحدة وعذاب ضمير إزاء ما آل إليه الوجود العربي في الأندلس، ولهذا فقد لجأ الشاعر إلى الطبيعة الصامتة التي أحس من خلالها بالتغير وبالصراع بينه وبين الزمن من خلال ما يحدث عبره من تغير وتبدل في الطبيعة والإنسان، ولهذا فإنّه يمكن للمرء أن يلمس بوضوح نظرة الشاعر إلى الحياة من خلال النص حيث يبرز صراعه مع الحياة في مواجهة الموت في أسلوب قصصي [30]. حيث تتمثل فيه مناجاة النفس، بحيث يعكس هذا الجوّ بعدا رومنسيا واضح[31].

---

(29) الركّابي جودت : في الأدب الأندلسي، ص 108 .

(30) السعيد محمّد مجيد : الشّعر في عهد المرابطين والموحّدين بالأندلس، دار الرّشيد للنّشر،بغداد، 1980 ص 138.

(31) عمر الدّقاق : ملامح الشّعر الأندلسي،ص252 .

وأخيرا، يمكن القول بأن هذا النص قد ساق مشكلة الموت والحياة التي أضفى الشاعر عليها نزعة فلسفية تشاؤمية بأسلوب قصصي ابتعد فيه الشاعر عن الأسلوب التسجيلي، حيث وظف الشاعر أسلوب التكرار من خلال تكراره بعض المقاطع والحروف، فضلا عن الإيقاع والنغم الموسيقي الذي جاء به البحر الطويل بشكل خدم النص الشعري ومنحه حيوية وقوة تتلاءم مع قوة الكلمة والنبر الذي نقل مشاعر الشاعر ومواجهته لهذه الإشكالية الإنسانية المتمثلة في ثنائية الموت والحياة .

المصـــادر والمراجـــع

1- الركابي جودت : في الأدب الأندلسي، دار المعارف بمصر، ط4، القاهرة 1960 .

2- ابن خفاجة : أبو إسحاق إبراهيم بن خفاجة : الديوان، تحقيق سيد غازي، منشأة المعارف بالإسكندرية، ط6، 1989.

3- الدقاق، عمر : ملامح الشعر الأندلسي، دار الشروق، بيروت 1975.

4- السعيد، محمد مجيد : الشعر في عهد المرابطين والموحدين بالأندلس، دار الرشيد للنشر، بغداد 1980 .

5- صدوق، نورالدين : حدود النص الأدبي، دراسة في التنظير والإبداع، دار الثقافة، ط1. الدار البيضاء 1984.

6- عباس، إحسان : تاريخ الأدب الأندلسي، عصر الطوائف والمرابطين، دار الثقافة، ط5 . بيروت 1978.

7- عبد الخالق، احمد محمد : قلق الموت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب (سلسلة عالم المعرفة رقم 111)، الكويت 1987.

8- غومس، غارسيا : الشعر الأندلسي، ترجمة حسين مؤنس، مكتبة النهضة المصرية، ط3 ، القاهرة، 1969.

9- فضل، صلاح : بلاغة الخطاب وعلم النص، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب (سلسلة عالم المعرفة رقم 164) الكويت 1992.

10- يمنى العيد : في معرفة النص، دار الآفاق الجديدة، ط3، بيروت 1985.